A L I H A R B

علي حرب

هكذا أقرأ
ما بعد التفكيك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هكذا أقرأ ما بعد التفكيك / دراسات ـ فكر
د. علي حرب / مؤلّف من لبنان
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
الإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف :
زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ والتنفيذ الطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

ISBN 9953-36-807-4

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علي حرب

هكذا أقرأ

ما بعد التفكيك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى فاتنة،

التي بدعمها وصبرها،

كان لي أن أقرأ ما قرأتُه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تصدير

الحقيقة والقراءة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحقيقة والقراءة

أصبح مصطلح القراءة من أكثر المفردات شيوعاً وتداولاً، بعد أن تعدى المجال الذي وضع له أو تشكل معه في الأصل اللغوي: القراءة في الكتب عامة أو نقد النصوص بصفة خاصة.

ما استجد هو أن المصطلح يُستخدم اليوم، بمعنى أوسع، لكي يشمل الأحداث والتجارب والأعمال التي تنتج حولها الكتابات والنصوص، بل هو بات يشمل أي معطى كان، لكي يتصدر مفردات الخطاب المتعلقة بالفهم والتشخيص أو بالتقييم والتقدير.

من هنا أصبحت كلمة «قراءة» شائعة على لسان الخبراء والمعلقين والاستراتيجيين، وكل من يهتم بدرس واقع معين وتشخيصه لرصد دلالاته أو تقدير احتمالاته أو استخلاص دروسه أو التأثير في مجرياته، على ما تُعامل التطورات السياسية أو الأزمات الاقتصادية أو المعضلات الأمنية.

ومن هنا أيضاً صار التقييم، سلباً أو إيجاباً، معياره القراءة للمعطيات، على سبيل المفاضلة، بين من لا يحسن القراءة، وبين من يحسن، باستقراء واقع أو رصد ظاهرة أو فهم حدث أو تحليل موقف أو تفكيك مشكلة أو معالجة أزمة.

حتى في مجال لعبة الكرة، التي صار لها نقادها، إنما تستخدم كلمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قراءة لتقييم أداء اللاعب الجيد الذي يحسن قراءة الموقف واستباق الأمور، إما بتوقع وجهة الرد من جانب خصمه، أو بمفاجأته بما هو غير متوقع من الردود والضربات.

هذا شأن اللاعب الجيد، القادر على الخلق والابتكار، في الأسلوب والأداء، على ساحته أيًا كان حقل اللعب. إنه يلعب على نحو يخربط الحسابات ويخلط الأوراق، فيغير في مجرى اللعبة، بقدر ما يحسن إدارتها بخلق وقائع لم تكن بالحسبان، أو بقدر ما يقرأ، في ما يقع، ما لا يحسن قراءته سواه من الوجوه والأبعاد والاحتمالات.

وهكذا تكتسح مفردة «القراءة» شاشة الرؤية إلى حد يكاد يزيح مفردة «الحقيقة» من مركز الصدارة، وينزلها عن عرشها الذي تخلع، من فرط التسبيح بحمدها والمتاجرة ببضاعتها، لدى عشاقها من الفلاسفة والمنظّرين أو الدعاة والمثقفين.

وهذا مآل البحث عن حقيقة مطلقة أو متعالية على الأحداث والوقائع والمجريات: الجهل بالحقيقة أو الوصول بها إلى باب موصود. ذلك أن المُعاش والمتاح على أرض الممارسة وفي أتون التجربة هو القدرة المستمرة على الخلق والتشكل أو على التحول والتبدل، سواء تعلق الأمر بمسلسل الأحداث أو بتسلسل الأفكار، بكتاب الطبيعة أو بعالم الفكر.

حتى في الميادين العلمية الصرفة، لم تعد القضية تتعلق بنظريات نهائية نقبض بها على حقيقة الواقع، بقدر ما تتعلق بفتح حقول ومجالات أو بناء صيغ ونماذج تفسر الظاهرات وتخضع للتطوير أو التغيير، بقدر ما يعاد معها بناء الواقع باستمرار. هذا ما تشهد به المقولات العلمية كالجينة والذرة. فعندما تتحول الواحدة منها إلى مبدأ مطلق للتفسير، تمسي كالمبدأ الغيبي الأوحد، أي تدّعي تفسير كل شيء، لكي لا تفسير شيئاً. وهكذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالعالِم ليس مجرد محقق، بقدر ما هو أيضاً خالق وصانع للمناهج والنماذج والنظريات وسوى ذلك من الوقائع المعرفية.

في أي حال، ما نستخدمه اليوم، هو عبارة «قراءة الوقائع» أكثر مما نستخدم عبارة «معرفة الحقيقة». وثمة فارق بين المقولتين من غير وجه:

1 ـ الوجه الأول هو أن المعرفة، بمعناها التقليدي أو الحداثي، تهتم بالوصف والعبارة، أو بالكشف والبرهنة؛ في حين تتعدى القراءة ذلك نحو المجاز والإشارة، وتعنى بالأثر والفاعلية، أي بما يتركه الكلام من الأصداء والظلال أو بما يولده من التفاعلات والتداعيات. من هنا تنفتح القراءة على ألاعيب اللغة وآليات التأويل، أو على أنماط السرد وسياقات الكلام، أو على استراتيجيات المحادثة وقواعد المداولة.

2 ـ الوجه الثاني أن معرفة الحقيقة، بمعناها المعتاد، تمارس كفعل ذهني محض يصدر عن ذات متعالية تتماهى مع ذاتها، وتتوجه إلى الأشياء عينها، بقصد التطابق معها والقبض على ماهيتها، ولكن بعد إسقاط وقائع العلامة واللغة والخطاب والسياق؛ وهذا ما تستعيده القراءة، إذ هو يشكل بالنسبة إلى المعرفة ليس مجرد أداة أو وسيط، بل الجسد والشرط أو الوسط والمبنى أو الموقع والخريطة.

3 ـ الوجه الثالث أن نظريات المعرفة تنتمي إلى الأطوار التي ساد فيها الفكر الماورائي والمتعالي، حيث منطق التطابق بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، وحيث الشاغل هو البحث عن الأحكام الضرورية والكلية. في حين أن عمل القراءة يتجاوز العلم بالأسباب ومعرفة الشروط المسبقة، باجتراح إمكان يجري معه خرق الشروط وخريطة سلاسل الأسباب أو مسلسل الاستدلالات وبصورة تتغير معها خرائط الفهم ومبادئ التصنيف بقدر ما تتغير علاقات القوة وقواعد اللعبة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

4 ـ الوجه الرابع أن ما يهم في نظرية المعرفة هو كشف الحقيقة ووصف الماهية أو جوهر الموضوع وثبات المعطى أو صحة المقولة ويقين النتيجة؛ في حين أن الأهم في استراتيجية القراءة هو واقعة الخلق وبناء الحقل، أو موقع القارئ وزاوية الرؤية، أو إدارة القضية وتداول الفكرة. وهكذا فمصطلح «الحقيقة» ينتمي إلى مملكة العين والثبات والمطابقة والحتمية والتطبيق؛ في حين أن القراءة تنفتح على مفردات الاختلاف والتعدد أو الاستراتيجية والرهان أو الخلق والتحول.

5 ـ الوجه الخامس أن معرفة الحقيقة تتجه نحو الماضي لكشف ما جرى أو ما حدث بصورة بعدية. فالحدث يسبق هنا المعرفة التي تتشكل بعد فوات الأوان: في حين أن القراءة قد تستبق الحدث وتسهم في صنعه. ولذا فالذي يقرأ جيداً أو بصورة فعالة وراهنة، هو الذي يعرف كيف يغير أفكاره وأدواته، لكي يكون على مستوى الحدث، وعلى قدر المسؤولية، بحيث يشارك في إنتاج الحقائق وسط المشهد وفي إدارة اللعبة على المسرح.

من هنا فإن «الحقيقة» هي في الغالب من شأن الباحث المُحقق[1]

---

(1) قد يكون مصطلح الحقيقة أكثر مصداقية وإجرائية على الصعيد الحقوقي أو الجنائي. ولكن حتى في هذه الحالة، تشكل معرفة الحقيقة واقعة مفتوحة على التعدد والاختلاف في التفاسير والقراءات، باختلاف المواقع والهويات أو المدارس والاستراتيجيات. وإذا كان من المهم معرفة الحقيقة، في القضايا الجرمية، بحق الأفراد أو الإنسانية، بقصد الجزاء والقصاص، أو النقد والمحاسبة، لاستخلاص الدرس والعبرة، كما هي الحال في التفجيرات الإرهابية التي لا يعلن مرتكبوها عنها؛ فإن من المهم أيضاً، على الصعيد الوجودي، الالتفات إلى ما تفتحه هذه الأعمال من الإمكانات للتفكير والعمل، أو ما تخلقه من المفاعيل والأصداء والتداعيات، التي تتغير معها قواعد اللعبة أو تنقلب الموازين بقدر ما تتخربط الحسابات الاستراتيجية.
إن الحقيقة ليست مجرد اكتشافها، وإنما هي أيضاً وخاصة طاقتنا الحية على أن نتحول، بعد معرفتها، بصورة خلاقة، على سبيل التجاوز والتركيب والبناء، بحيث تتغير معها العقليات والأنظمة والسياسات. وهذا هو الرهان: أن نتغير عما نحن عليه، بخلق الوقائع وإنتاج=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمعاييره المسبقة وقوالبه الضيقة، في حين أن «القراءة» هي من شأن الاستراتيجي الخالق الذي يهتم بكسر القوالب والخروج على السائد من المعايير والقواعد، لبناء قدرات أو إطلاق مبادرات تتعامل مع ما ينكشف من الحقائق كإمكانات يجري اجتراحها أو بناؤها لفتح مجالات وفرص للتفكير والتعبير أو للعمل والإدارة بصورة غير مسبوقة، ولكن إيجابية وبناءة، ثرية وفعالة.

6 ـ وأخيراً فإن مفردة الحقيقة، باتت مشحونة بمضامين إيديولوجية، ماورائية أو طوباوية، بقدر ما تبدو ذات طابع مطلق أو جوهري أو مرآوي أو أحادي، وبقدر ما تصدر عن إرادة المماهاة والتيقن أو تجسد منطق المطابقة والتحكم. الأمر الذي يحيل هاجس المعرفة بالحقيقة إلى صنم يعبد، أو إلى نظام مغلق، أو إلى يقين فاشي كما في الحالة القصوى؛ في حين أن فعل القراءة هو من حيث البنية علائقي، تعددي، ديناميكي، بقدر ما هو من حيث الفاعلية ذو طابع استراتيجي، عملاني، تداولي. وهكذا فنحن إذ نقرأ، في ما يحدث ويتشكل أو يتغير ويتحول، لا نبحث عن جواهر ثابتة أو عن حقائق نهائية، ولا نذعن لأقانيم مقدسة أو نتعبد لأصنام عقائدية، وإنما نقرأ الوقائع لكي نخلق حقائق جديدة قد يتغير معها مفهوم الحقيقة بالذات(1).

ولا يعني ذلك أن مفردة «القراءة» تلغي مفردة «الحقيقة». من يفكر بمنطق الإلغاء، يغرق من جديد في ثنائية ماورائية خانقة تشل طاقة الفكر بقدر ما تضعه بين فكي الكماشة، الصح والخطأ، الحق والباطل، المطابقة

=الحقائق التي تسهم في توسيع أو تعزيز أو اجتراح ما يحتاج إليه العمل العام أو البناء المشترك، من الأطر والصيغ أو الأدوات والتوسطات.

(1) راجع بهذا الصدد كتابي: نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي 1993.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والهرطقة. المسألة تتعلق بإنشاء علاقات مغايرة مع الحقيقة تشحن معها بمعان جديدة تجعلها أقل تجريداً وتعالياً ووجدانية أي أكثر تداولية وإجرائية وراهنية، من خلال فتحها على مفردات الخلق والابتكار، أو التجاوز والتركيب، أو الصرف والتحويل، أو الإدارة والتسيير. بهذا المعنى يشكل فعل المعرفة أو الكشف، بحسب الفكر المركب، وجهاً من وجوه فاعلية القراءة، بما هي رهان على إحداث تحول خلاق أو إجراء تغيير بناء.

ولذا نحن لا نقرأ لمجرد أن نعرف، باسم مبدأ غائب، ما هو كائن أو مخلوق، على سبيل المماهاة، أو الصدوع بالأمر، وإنما لكي نشارك أو ننخرط في لعبة الخلق، عبر اختراع الأسماء أو اجتراح الدلالات، أو بهتك البداهات وكشف المحجوبات، أو بخرق الحدود واجتياز العقبات، عبوراً نحو عوالم جديدة تنشأ معها علاقات مغايرة بين الأشياء، بقدر ما تنتج وقائع جديدة. وذلك هو رهان القراءة: أن يقرأ الواحد، لكي يخلق ويبتكر، فيما هو يكتب ويفكر، لكي يتغير ويغير، عبر ما تنسج منه القراءة من سلاسل الإحالة وشبكات الاستعارة أو مجازات الخيال ومركبات الفهم.

ولذا، مع كل قراءة خصبة وفعالة، تعبر نحو أفق جديد، تتشكل معه بؤر جديدة للمعنى أو تتغير خرائط الفهم: بقدر ما تتغير شروط الإمكان وسلاسل الأسباب أو تخربط الحسابات العقلية وتخلط الأوراق الاستراتيجية.

هذا ما يجعلني أعنون فصول هذا الكتاب التي هي قراءة في النصوص، بنوع خاص: «هكذا أقرأ». وأنا أخالف بذلك نيتشه ومن سار على منواله في كتابه: هكذا تكلم زرادشت. فمن المحال القبض على ما فكر فيه زرادشت. المتاح هو قراءته نصوصه بصرفها وتأويلها، أو تحويلها وإعادة خلقها. وهذا ما فعله نيتشه في كتابه: ما قاله هو كلام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الكلام بلغ من قوة الخلق والتأثير حداً يكاد يمحو فيه صورة الأصل ويحل محله. وهكذا فإن قراءة نيتشه هي خلق جديد يتضاعف مع النص، باختراع صورة جديدة لزرادشت استُحدث معها أفق فكري جديد، واستخدمت عدة مفهومية، على نحو غير مسبوق ولا متوقع هو أكثر خرقاً وفاعلية.

ولذا لا أقول أيضاً هكذا تكلم جاك دريدا. وإنما أقول هذه قراءتي لدريدا التي تجسّد استثماراتي الفكرية في الحقل الذي اكتشفه. فما نقوله حول النص، أي نص، ولو كان نصاً لنا نحن ألّفناه، هو في النهاية نص آخر لمعنىً يندّ عن الحصر باستمرار.

كذلك الأمر بالنسبة لكتاب نصر حامد أبو زيد الذي نسج فيه على منوال نيتشه: هكذا تكلم ابن عربي، نحن هنا إزاء استعارة خادعة، تصدر عن مفهوم يعيدنا إلى ما قبل المنجزات التي أسفرت عنها علوم القراءة والنص. فما قاله أبو زيد هو مجرد تأويل لابن عربي من بين تأويلات أخرى. هذا مع تفاوت القراءات من حيث أهميتها وقوتها على الاجتراح والخرق والتأثير، بالتخييل الخلاق والمجازات المبتكرة والمفاهيم الخارقة. فالقراءة الخصبة هي حقاً جرح واحتراح، على ما يقرأ النصوص الدكتور محمد شوقي الزين قراءة فلسفية خصبة واعدة[1].

في أي حال إن مفردة القراءة تجتاح مساحة الخطاب، مقدمةً بذلك مثالاً على أن الكلمة تحيا حياتها ويتسع معناها باتساع مجالها التداولي وخرقها للمواضعات اللغوية عبر المجازات المبتكرة والاستعارات

---

(1) راجع بهذا الخصوص محمد شوقي الزين: الاختلاف، أكثر من لغة أكثر من قناع، مجلة= =«كتابات معاصرة»، العدد 50 حزيران/ تموز 2003.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفريدة[1]. وكل مجاز هو عبور نحو فضاء جديد تنكسر معه قوالب المعرفة وحتميات الواقع، على نحو يغني إمكانات الوجود ويثري عالم الفهم ومفردات اللغة.

خلاصة القول في هذا المفتتح: ما أصل إليه وأعبّر به بكلماتي أو أعبّر معه بقراءاتي، المجموعة في هذا الكتاب، هو أن القراءة في الأسماء والأحداث، أو في الكلمات والأشياء، أو في ما يتردد بين ذلك، أي بين النص والواقع، هي خلق وابتكار بقدر ما تصدر عن غنى التجربة وفرادة اللغة، أو بقدر ما تنطق عن هوى المعرفة وتجسد متعة النص وإرادة الحضور والفاعلية.

---

(1) هذا هو مصير كلمة «تسونامي» التي برزت إلى الاستعمال بعد الكارثة التي أحدثها طوفان الموجة العملاقة التي اجتاحت سواحل بعض بلدان جنوبي آسيا في نهاية العام 2004، لكي تقتل وتدمر على نحو مرعب. فكلمة «تسونامي» أخذت تطلق على الأحداث السياسية التي لها مفاعيل الكارثة، كما يفعل بعض المحللين والسياسيين في قراءة التطورات والأزمات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

ما بعد التفكيك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما بعد التفكيك

ما حدث من توسع وتغير في استعمال مصطلح القراءة، إن في الحقل أو في المفهوم، يقلب العلاقة بين النص والواقع. لم تعد هذه العلاقة وحيدة الجانب والاتجاه، بل أصبحت مركبة ومزدوجة أو متداخلة وملتبسة، بمعنى أنها تتشكل وتُبنى بتغيير كل واحد من الطرفين الداخلين في بنائها.

علاقة متحولة

ما تغير من جهة الواقع هو أن الواقع نفسه أصبح موضوع القراءة، بقدر ما يُعامل كنص ويقرأ بصفته مُثقلاً بالمعاني أو محمّلاً بالدلالات[1]، مما يجعله محتاجاً إلى من يتدبر معناه بالتفسير والتأويل.

من هنا تجد الاستراتيجيين يتعاملون مع المواقف والأعمال البشرية بوصفها «رسائل» تحتاج إلى من يحسن قراءتها ويفك رموزها، كما تُقرأ

(1) قد يبدو التعامل مع الواقع كنص أو كلغة ليس بالموقف الجديد. فمن المعلوم أن الفكر اللاهوتي تعامل مع العالم بكائناته ومخلوقاته بوصفها آيات تدل على عظيم القدرة وعجيب الصنعة من جانب الخالق والموجِد. وفي المقابل إن الاتجاه الفكري الحديث، بميله إلى نزع الطابع الديني والسحري عن العالم، تعامل مع الطبيعة كنص مكتوب بلغة رياضية، كما قرأه غاليلو. غير أن الجدة لا تكمن هنا في توسيع مصطلح القراءة من حيث المجال، بل أيضاً وخاصة في التغير الذي طرأ على مفهوم القراءة، كما سبق الإيضاح في مفتتح هذا الكتاب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحياناً التطورات السياسية. فالموقف الجديد الذي يتخذه أحد اللاعبين على المسرح السياسي يعتبر رسالة موجهة إلى خصومه وحلفائه على السواء، عليهم أن يحسنوا قراءاتها وتأويلها.

على هذا النحو تُعامل، أيضاً، الأعمال الإرهابية، أي تقرأ كإشارات موجهة من طرف إلى آخر، يُفترض فيه أخذ العلم أو رد الجواب واتخاذ الرد المناسب:

وما تغير من جهة النص، هو أن النصوص أصبحت، منذ زمن، تعامل كوقائع خطابية لها منطقها وقوانينها أو كأحداث فكرية لها أثرها ومفاعيلها، بصرف النظر عن مراد مؤلفيها. لم يعد النص مجرد ناطق باسم المؤلف أو مجرد مرآة تعكس الواقع، بل أصبح هو نفسه واقعة تخضع للدرس والتحليل، ليس فقط، من حيث منطوقه وطرحه، بل أيضاً وخاصة من حيث بنيته ومنطقه وآلية عمله، أو من حيث قواعد تداوله وتشكيل سلطته؛ ولذا أصبح النص، كواقع خطابي، حقلاً لإنتاج الأفكار والمعارف، على نحو تتغير معه مفاهيمنا للفكر واللغة أو للمعرفة والحقيقة، وكما تفيدنا بذلك المنجزات التي أسفرت عنها فتوحات الدرس المعرفي حول الخطابات والنصوص والرموز اللغوية.

قد تكون اللغة في منشأها مجرد وظيفة للتبليغ، أي أداة للتعبير عن الحاجات والأغراض، بحسب تعبير اللغويين القدامى. ولكنها لم تعد كذلك، بعد هذه العصور الطويلة والتجارب البشرية المديدة، من التخيلات الأسطورية والمجازات الشعرية والحكايات الرمزية والآثار الأدبية والأنظمة المعرفية والأنساق المجردة والتراكيب المفهومية... فقد استقلت وبات لها كينونتها، بحيث لم تعد مجرد واسطة بين الناس، وإنما تشكل عالماً من الإمكانات الخصبة، المعرفية والجمالية، للتفكير والتعبير، بقدر ما باتت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقلاً للشرح والتفسير أو للصرف والتأويل أو للخلق والتحويل، بعوالمها الرمزية وفضاءاتها الدلالية ولغاتها المفهومية واستعمالاتها الفنية. بهذا المعنى فهي تنشىء العالم بقدر ما تتحدث عنه، وتصنع الواقع، بالكلمات، بقدر ما تتحول هي نفسها إلى وقائع لها آثارها ومفاعيلها.

من هنا المفارقة والإشكال في دعوى المعرفة بالواقع. ثمة عائق وجودي تمثله اللغة، فيما هي تسمي الأشياء أو تصف العالم، إذ هي تشكل واقعاً لا يمكن إهماله أو وسيطاً لا يمكن رفعه، ما يجعل من المحال أن تتماهى مع ما تسميه أو تصفه أو تُعرب عنه. المتاح هو أن تقوم بتحويله وتغييره، على نحو ما، عبر أنساق العلامات وخرائط الدلالة أو عبر ألاعيب البلاغة وشبكات الفهم.

وهكذا أصبحت العلاقة بين النص والواقع تفهم على نحو تحويلي: الواقع يقرأ كنص له معناه بقدر ما تعامل الوقائع كعلامات ورسائل؛ وفي المقابل تعامل النصوص كوقائع لها فعلها وأثرها في تشكيل الواقع نفسه.

واقعة مضافة

كل قراءة في الواقع المُعطى تخلق واقعها، أي تشكل معطى جديداً يسهم في تغيير الواقع؛ تماماً كما أن كل تطور على أرض الواقع يحمل على تغيير في اللغة والخطابات والمفردات. كل قراءة في النص تشكل «واقعة مضافة»، كما أن كل قراءة في الوقائع تسهم في تجديد النصوص والمعنى.

نحن إذن إزاء صنفين من الوقائع والتشكيلات لا انفكاك لأحدهما عن الآخر: الوقائع الخطابية وغير الخطابية، واقع القراءة وقراءة الواقع. والعلاقة بينهما تشبه العلاقة بين اللغة وما وراء اللغة، أو «اللغة الشارحة»، كما كان يقول المناطقة القدامى. وفي اللغة الشارحة يدور الكلام على الكلام، وتتحدث اللغة عن نفسها أي تجعل موضوعها اللغة عينها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من هنا ثمة فجوة مزدوجة في قراءة النص الذي هو قراءة في الواقع؛ فجوة بين الكلمات والأشياء تضاعف الفجوة بين الكلمات والدلالات. فإذا كانت اللغة تخلق واقعها، فيما هي تخبر عن الواقع، فإن القراءة في النص، تشكل هي الأخرى نصاً مضاعفاً فيما تدعي الوقوف على حقيقة النص، أي تنتج حقيقة جديدة، فيما هي تزعم النص على الحقيقة.

هذه الفجوة الأصلية تحمل على التخلي عن منطق المطابقة والشفافية والثبات والوحدانية، للتمرس بمنطق الخلق والاختلاف والتحول والتداول. وهكذا، فنحن إذ نفكر في العلاقة بين النص والحقيقة، أو بين المصطلح والمرجع، أو بين المنطوق والمفهوم، نجد أنفسنا أمام ثلاثة مستويات في الوجود، تجسدها العلامات والدلالات والكائنات، يحيل بعضها إلى بعض ويسهم واحدها في تشكيل الآخر وتغييره بصورة من الصور.

الواقعة وممكناتها

الواقعة أكانت خطابية أم غير خطابية هي جملة إمكاناتها بقدر ما هي عالم مفتوح على الاحتمالات والمفاجآت، أو على المغيّبات والمجهولات. هذا شأن كل واقعة بمكوناتها وعواملها، أو بتداعياتها وأصدائها، أو بآثارها ومفاعيلها، أو بترجيعاتها وارتداداتها، أو بمفارقاتها وتناقضاتها. ولذا لا واقعة أو ظاهرة أو حادثة تقرأ على نحو أحادي الدلالة والوجهة، إلا على سبيل القصور والعجز والفقر، سواء تعلقَ الأمر بمعطى طبيعي أم بعمل بشري وصنيع ثقافي.

هذا شأن كل واقع: إن هويته أو ثمرته، إنما تتوقف على طريقة التعاطي معه، سلباً أو إيجاباً، فقراً أو ثراء، خراباً أو بناء... على هذا النحو يمكن التعامل مع ظاهرة العولمة بفتوحاتها وتقنياتها وشبكاتها: إنها مجرد رصيد أو مخزون. ولذا فإن أهميتها أو خطورتها، إنما تتوقف على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيفية التعامل معها، أي هي رهن قدرتنا على أن نتحول بها ونسهم في تحويلها، على هذا الوجه أو ذاك.

وبالطبع هذا شأن النص. إنه متعدد المعنى، ملتبس الدلالة، كثيف المفهوم، متوتر الوجهة، إشكالي القضية والأطروحة؛ إذ هو علاقته بمكوّناته وسياقاته، بقدر ما هو علاقته بممكناته واحتمالاته. ولذا فهو يحتمل غير قراءة، بقدر ما يختزن ما لا يتناهى من القراءات التي تراكمت وتفاعلت في ذهن مؤلفه، لكي تسهم في تشكيله وظهوره.

ومن هنا أيضاً يتعدى النص الهام مؤلفه، بمسبقاته وبداهاته، أو باحتمالاته وأبعاده، بقدر ما يخترق الذين يعارضونه بجدّته وأصالته أو بمتعته وغوايته. وتلك هي مخاتلة الكلام ومراوغة النصوص التي تلعب من وراء المتكلم وتندّ عن سيطرة القارىء.

وما يقال على النص يمكن قوله على الحدث. إنه لا يُقرأ بصورة وحيدة الجانب أو الدلالة أو الوجهة، كبنية مقفلة أو سلسلة محكمة أو حتمية صارمة، وإنما يُقرأ بوصفه منبع إمكاناته، بقدر ما يُعامل من حيث تداخل مستوياته وتراكب طبقاته، أو من حيث تعدد أبعاده وتفاوت سرعاته، أو من حيث صيرورة هويته وحراك معطياته. ولذا فهو يحتمل أكثر من قراءة، بقدر ما هو حصيلة لما لا يتناهى من الظروف والحيثيات والانفعالات والتصورات والمفردات التي كانت تتجمع وتتراكم أو تعتمل وتتفاعل، لكي تسهم في إنتاجه وانفجاره.

من هنا فالحدث الهام، كالحرب مثلاً، يتعدى صانعيه بمفاعيله وأصدائه وممكناته، بقدر ما يرتد عليهم لكي يشكل فرصة أو يفتح أفقاً أمام ضحاياه، وهذا هو مكر التاريخ وانتقام الوقائع.

وكما أن النص المنسوح من كشافته وتوتره يتعدى مؤلفه ويفيض عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منطوقه، بفراغاته ومفارقاته والتباساته، لكي يشكل إمكاناً لإعادة التفكير والفهم على نحو مختلف، فإن الحدث، بضفافه وعتباته أو بألغازه وألغامه، يخرج عن سيطرة فاعليه ويتعدى ما قصدوا من ورائه، لكي يفتح إمكاناً للتعقل والتدبر على نحو مغاير وبناء. تلك هي مفاعيل الواقعة التي يخلقها أو يعمل على خلقها الفاعل البشري: قد تخرج عما فكر فيه وخطط له، لكي تستقل عنه أو تقوده إلى ما يريد ولا يسعى إليه. وهكذا فإن الواقعة، أكانت ذرة أم مجرة، لها كينونتها المستقلة، كما لها قوتها وأثرها، فيما يتعدى إرادة الإنسان ومقاصده. ولذا فهي تقاوم محاولات السيطرة عليها أو التحكم بها.

وبالإجمال هذا شأن كل معطى، إنما يقرأ بوصفه حمّال أوجه أو صانع مفارقات أو مولد تناقضات؛ الأمر الذي يجعله مثار الحيرة والالتباس أو التوتر والارتباك. ولذا فهو يضعنا أمام المفترقات، بقدر ما يمتحن قدرتنا على الخلق والتوليد أو التصنيع والتحويل أو التخطي والبناء.

فالأحرى أن تعامل الوقائع أكانت خطابية أم غير خطابية، بوصفها معطيات للقراءة، أي إمكانات يجري التعاطي معها بلغة الخلق والتوسط والتحول. أما ادعاءات القبض والتحكم فلها أثمانها الباهظة. تشهد على ذلك ما تسفر عنه صنائع الإنسان ومشاريعه من الانهيارات والكوارث أو الفجوات والفراغات. لنعترف: نحن وسطاء نقوم بتحويل الأشياء، لا بالقبض عليها.

بهذا المعنى لا خشية مما يحدث ويتشكل أو يستجد ويتغير. فالواقع بطفراته وتحولاته أو بانفجاراته وانهياراته، ليس لكي ننفيه[1] أو نتعامى

---

(1) هذا ما يفعله الأصوليون القدامى والمحدثون من ديناصورات التراث وعجزة الحداثة والأنسنة=

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منه، إذ بذلك يتحول إلى فخ أو عائق؛ وليس لكي نستنسخه في الزمان أو المكان، إذ بذلك نعيد إنتاجه مسخاً وتشويهاً أو فقراً وتخلفاً؛ وبالطبع ليس لكي نفزع منه ونندب حظنا تجاهه، إذ بذلك تهمشنا الأحداث وتنتقم منا الوقائع. المتاح هو أن نحسن القراءة، لكي نعرف كيف نتغير ونساهم في إدارة المتغيرات؛ أو كيف نجابه الواقع بعناده عبر خلق الوقائع التي بها نفك الطوق ونخرق الشرط أو نفكك العوائق ونجترح المخارج.

المعنى وحكمه

إذا كان النص يحتمل غير قراءة، فالقراءات تختلف وتتفاوت من حيث علاقتها بموضوعاتها وبالمواد التي تعمل عليها: قد تكون شرحاً لنص أو تفسيراً له؛ وقد تتعدى التفسير والشرح لكي تكون تأويلاً وصرفاً لما يحتمله الكلام من المعاني والدلالات؛ ولكن، قد تتعدى التفسير والتأويل، فتتجاوز المؤلف ومراده أو المعنى واحتمالاته، لكي تكون تشريحاً وتفكيكاً للبنى والآليات والمؤسسات التي تسهم في تشكيل الخطاب وإنتاج المعنى.

والأقرب هو أن تتداخل هذه الأنماط الثلاثة في كل قراءة[1]: إذ لا تخلو قراءة من شرح لما يراد قوله، بالوقوف على مقدماته أو تحليل عناصره؛ كما لا تخلو من تأويل لما يفهم من الكلام أو الخطاب، لالتقاط ظلال المعنى أو للوقوف على ألاعيب الكلام؛ كذلك لا تخلو قراءة من تفكيك لبنية المعنى للكشف عما يتأسس عليه من اللامعنى، مما هو ليس بمفهوم أو معقول أو مشروع أو حَسَن.

=المذعورون من فتوحات العولمة، والنتيجة أن الواقع يزداد تردياً ويزدادون هم هامشية بقدر ما ينفون الوقائع أو لا يحسنون قراءة الأحداث.

(1) نحن هنا إزاء استراتيجية مثلثة في قراءة النص؛ راجع بهذا الصدد كتابي، الممنوع والممتنع، المركز الثقافي العربي، طبعة رابعة، 2005.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالطبع نحن نفكك، من أجل إعادة البناء والتركيب، لأننا محكومون بالمعنى. ولا معنى من غير ربط شيء بشيء، على سبيل الترتيب النحوي أو الاجتراح الدلالي أو التركيب المفهومي. وهكذا لا تخلو قراءة من قدر من التحليل والتفكيك لبنية المفردات أو لنظام الجمل أو لسلاسل الكلام أو لنسق العلامات، من أجل إعادة الترتيب والتشكيل أو البناء والتركيب.

القبض واستحالته

التفكيك قد يكون في أبسط أشكاله وأفعاله مجرد فك للحرف[1] لدرك المعنى. وقد يكون اشتغالاً على المعنى بتفكيك بنيته وأصوله، أو تعرية مسبقاته ومحجوباته، أو تبيان خدعه وألاعيبه، أو فضح سلطته وتحكماته، للكشف عما يمارسه الكلام من الحجب والخداع والاعتباط أو الادعاء والتحكم والمصادرة.

ومن مفاعيل النقد التفكيكي أن يبين بأن ما يظن بأنه بديهي أو طبيعي أو مطلق أو جوهري أو مركزي أو ثابت أو معقول أو مشروع، ليس هو كذلك، أي يتكشف، بعد التشريح والتحليل، عما هو مبني وتاريخي وثقافي وعَرَضي ونسبي ومتحول وزائل...

والتفكيك هو بهذا المعنى قراءة في محنة المعنى وفضائحه، للكشف عن نقائض العقل وأنقاض الواقع أو عن حطام المشاريع وكوارث الدعوات على أرض المعايشات الوجودية.

---

(1) من المفارقات أن يقول عامة الناس لمن يحسن القراءة بأنه «يفك الحرف»، وأن يقولوا للأميّ بأنه «لا يفك الحرف». في حين نجد أن بعض أهل الاختصاص من العاملين في مجالات الفلسفة والنقد أو الأدب واللغة، يخشون من كلمة تفكيك ويتعاملون معها كفزاعة، لكي يشهدوا على أميتهم الفلسفية والمعرفية؛ ذلك أن خطاب التفكيك، فيما يعلن التفكيك، يمارس إعادة تركيب على نحو مضاعف، نحوي ودلالي ومفهومي، أي من حيث ترتيب الكلام واجتراح الدلالة أو بناء الحقل والمفهوم أو صناعة المنهج والطريقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يعني ذلك إحلال طرف في الثنائية محل طرف أو تغليب نقيض على آخر، وإنما يعني أنه لا مجال للقبض على المعنى الذي هو دوماً مثار لاختلاف والتعدد أو الانتهاك والخروج أو الالتباس والتعارض، بقدر ما شكل إمكاناً لإعادة البناء والتركيب. من هنا معنى «الإرجاء»[1] الذي يعني ستحالة القبض، في مسألة المعنى والحقيقة أو المشروعية والمصداقية، قدر ما يضع حداً لإرادة التأله والانفراد والاحتكار والمصادرة، كما تتجسم ي محاولات الإلغاء أو الاستئصال الرمزي أو المادي للآخر والمختلف.

ير ممكن

مسوغ القراءة وعلتها أن المقروء، أكان واقعاً يستحيل نصاً أم نصاً حول الواقع، لا يقرأ بحرفيته وعينيته أو ببساطته ومباشريته.

فإذا كان المعطى، هو بحسب معاملتنا له أو تعاطينا معه، فإن فعوله، بمعنى أهميته وفائدته، أو ضرره وخطره، إنما يتوقف على ما نحن يه، أي على شكل الوعي ونمط التفكير أو على أدوات النظر وقواعد عمل؛ بهذا المعنى ليس الشيء سوى مفهومه أو عقلنته أو قانونه أو ؤسسته أو كيفية توظيفه أو طريقة استعماله واستثماره. بتأويل أخر: إن شيء هو مفهومه أو نظريته أو فنه أو أسلوبه أو طريقته أو أداءه. وإذا

1) من المفارقات أن مصطلح «الإرجاء» (différance) الذي نحته الفيلسوف جاك دريدا، والذي هو مثار الحيرة والارتباك، يحيلنا إلى فرقة «المرجئة» الكلامية، التي قال أصحابها بأنه لا سبيل إلى الحسم بين المتنازعين من المسلمين في مسألة الخلافة، ولذا قالوا بإرجاء الحكم إلى يوم القيامة، حيث الله يحكم بين المختلفين. وهذا مثال على أن الجزم القاطع في الأحكام، بما هو تأله وتحكم، مآله تأجيج الصراعات وخراب الدعوات وحرائق المشاريع، كما شهدت في الماضي حروب الجمل وصفين، وكما تشهد اليوم على الساحات الإسلامية الصراعات الدموية على المشروعية بين الجماعات والتنظيمات التي يدعي كل منها امتلاك الحقيقة ويحاول احتكار التفسير والنطق باسم الواحد الأحد الغائب عن المسرح..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com